التربيـــة و الأطفال

(رؤية إسلامية)

إعداد

أ.د / عبد الغنى عبود

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية

كلية التربية – جامعة عين شمس

مجلة رعاية وتنمية الطفولة - جامعة المنصورة

العدد (٤) – المجلد (١) – ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

التربية والأطفال (رؤية إسلامية)

(ورقة عمل)

دكتور عبد الغنى عبود

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية

بكلية التربية جامعة عين شمس

لا يـزال عـالَمُ الأطفال عالَماً مجهولا إلى حدّ بعيد بالنسبة لمَن يتعاملون معهم مـن الكبار ، آبـاء كان هؤلاء الكبارُ أو معلّمين أو باحثين أكاديميين في مجال من مجالات الأطفال .. وذلك لأن الكبارَ تعوّدوا أن ينظُروا إلى هؤلاء الأطفال من منظور الكـبار أنفُسِهم ، لا من منظور الأطفال الذين يتعاملون معهم . إننا – نحن الكبارَ – نُسـقِطُ علـى هؤلاء الأطفال تَجارِبَنا وخبراتنا نحن عندما كنا في سنهم .. ولن يعدَمَ الباحـثون الأكاديميون منا أن يجدوا مجموعة تجريبية ومجموعة ضابطة ، يُمرّرون – مـن خلالهما – ما يريدون تمريرَه من رؤى .. بل إن الباحثين في العلوم الطبيعية أنفُسَهم كثيرا ما يفعلون ذلك ليُظهِروا (عِلميّتَهم) فيما يُجرونه من تجارب ، ليَفعَلوا نفسَ الشيء .

إن الطفـلَ لـيس شرّا مُطلَقاً ، كما نظرت إليه الكنيسة الكاثوليكية والتعليم الذي كانت تُشرِف عليه طوالَ العصور الوُسطَى الأوربية .. كما أنه ليس خيراً محضاً كمـا نظـر إلـيه جان جاك روسّو بعد ذلك ، على سبيل المثال ، ولكنه عجينه قابلة للتشكيل ، خيراً أو شرّا ، كما يرى الإسلام .

إن الطفولة مجرّدُ (مَرحَلَة) من مُراحل نمُوّ الإنسان ، بدءاً من حَياةِ الرحِم ، حيـث يلتقي الحَيَوانُ المنوي للرجل ببويضة الأنثَى ، وحيث يمرّ الإنسان بتطوّرات – فـي أشهُرِ الحمل تلك – تفوق كثيراً ما يمرّ به طوالَ حياته من تطوّرات .. وهى تطـوّرات تحـدُث بصورة تلقائية ، من خلال الحبل السري في مرحلة الحمل ، ومن خـلال الأجهزة الداخلية للطفل بعد مولده .. وكل ما تفعَلُهُ التربيةُ في ذلك هو توفير (المتطلّـبات) الأساسـية للطفـل ، من طَعام وشراب وهواء نقِيّ ، وهى متطلّبات لا

تختلف كثيراً عن متطلّبات الكِبار ، ومن ثمّ يكون كل المطلوبُ من الكبير هو احتضان الصغير ورعايته والصبر على متطلّباته ، وهو ما يُودِعُهُ اللهُ سبحانه في قلوب الكبار ، فـــي عـــالَمِ الإنسان وعالَم الحَيوان وعالَم النبات جميعاً ، فيقومون به بحبّ ورِضا وسَـــعادة ، لتتمّ – مِن خلال التربية ، وخاصّة تربية الإنسان ، إثراء التجربة الحسّيّة والوجدانية للأطفال ، التي تتفتّح – فعلا – في مرحَلَة المهد .

وعندَما يتدخّلُ الكِبار في توجيه نموّ الأطفال بشكل كبير ، كما يحدُثُ في نُظُم التعلـــيم المُعاصِـــرة ، ويفرِضـــون على هؤلاء الأطفال رُؤاهم ، فإنهم يُفسِدون تربية هؤلاء الأطفال إفساداً ، كما نراه يحدُثُ في نُظُم التعليم المُعاصرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

التربيـــة والأطفـــال
(رؤيـــة إسـلاميّــة)

(ورقة عمل)

دكتور عبد الغنى عبود
أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية
بكلية التربية جامعة عين شمس

توطئـــــة :

يَجِـدُ أي باحـثٍ علمـي مدقّق صعوبةً كبيرةً في الحديث عن الطفولة والأطفــال ، وخاصّــة فــي هذا الزمان – زمان العَولمة الأنجلو/ سكسوني- الهائج المــائج المضــطرب ، الــذي أفسَدَ الأرضَ وأفسَدَ الحياة عليها إفساداً ، ربّما يكون الأوانُ قد فاتَ على تَدارُكه . ذلك أن عالَمَ الطفولة ذاته عالَم لا يزال مجهولا إلى حدّ بعـيد ، رغـمَ تقدّمِ الدراسات فيه ، إلا أنها دراسات لا تعكس (حقيقة) عالَمَ الطفولة ذاك ، بقـدر ما تعكِسُ رُؤَى (الكِبارِ) عنه ، أو تخيّلاتهم له .. فمَدارِسُ عِلم النفس يصل الاختلافُ بينها – في هذا الشأن – إلى حدّ التناقُض .

وعـندما نقرِنُ الطفولة بالتربية في العنوان ، فإننا نجد أنفُسَنا مضطرّين إلى أن ندخُـلَ إلــى مجالٍ آخَرَ مختلِفٍ إلى حدّ ما ، هو مَجال (الثقافة) وفِعلها في هذه الطفولــة التــي يصِفونها بالبراءةِ عادة ، وهى – مِن هذه البَراءة – بَراء مِن وجهة نظــري .. فــالطفل فــيها يكون على درجة من السذاجة و(الغفلة) ، بسَبَبِ نُضجه العقلــي المحدود – درجة لا تمكّنه مِن ممارسة الخُبث واللؤم والخِسّة أحياناً ، التي نَــرَى كثيراً ممّن نعرِف من الكِبار يتحلّون بها ، لا لشيء أكثَرَ مِن (طول ممارسة) هــؤلاء الكِـبار لها بِحُكم السنّ ، فيصعُب (كشفُهم) .. في الوقت الذي ينكشف فيه هؤلاء الأطفالُ بسهولةٍ ، إذا هم مارَسوها .

الأطفال والتربية :

وثَمّـةَ سـؤال يفـرِضُ نفسَـه ابتـداءً في هذا المَجـال ، وهو سـؤال يـتعـلّقُ (بموضوع) التربية أو مَدارِها : هل هو الطفل الذي تتمّ تربيتُه ، أم الكبيرُ الـذي يضـطلعُ بهـذه التربية ، سواء كان أباً أو معلّماً ، ممّن يحتكّ بهم الطفل ، فيتركون بصمةً ما على شخصيته ، توجّه حياتَه على نحوٍ ما ، وجِهةً بعينها ؟

إنّ السـؤالَ لا بُـدّ أنْ يبـدُوَ غريباً فِعلا ، لا لغَرابةٍ يُمكِنُ أن تكون فيه ، ولكـن لأننا قد تمّت (بَرمَجَتُنا) على أن تكونَ الإجابةُ عليه واحـدةً ، لا ثانيةَ لها ، هـي أنّ موضـوعَ التربية ذاك هو الطفل ، ومِن ثَمّ كان هذا الطفلُ هو (موضوع) الدراسـات الـتربوية ، سـواء بالنسـبة للباحثين الأكاديميين في شئون التربيـة ، وبالنسـبة لطـلاب الدراسـات العُليا فيها ، وبالنسبة للراغبين في مزاولة (مِهنة) التدريس .. وإذا ما فكّرَ أحد في الخروج على هذا الخطّ الفكري العام ، كما أحاول أنا أن أفعَلَ الآن ، فإنه لا بدّ أن يُتّهَم بِتُهَمٍ شتّى ، لا مجال الآن لحَصرِها .

وقـد تَرتّـبَ علـى هـذه الإجابـةِ الأُحاديّـة الوِجهة ، أخطاء فادحة يقع فيها الممارِسـون للتربـية ، مـن الآبـاء والمعلّميـن جميعاً ، وذلك لأننا – نحن الكِبارَ المُربّيـن – لا نعرِفُ عن الطفولة إلا ما نتذكّرُه عن أنفُسِنا عندما كُنّا في سِنّها ، منذ عشـرين سنةً وزيادةً عادةً .. وعندما يُتاح لنا أن نقوم بدراسةٍ أكاديميةٍ ما ، حولَ أمرٍ من أمور الطفولة ، فإننا (نرتّب أمورَنا) عادةً لنحصُلَ على ما نريد من نَتائج ، تبدو بالغـةَ الدقّة ، فليس هنـاك أيسَـرُ مِن (تجهيز) مجموعة ضابطة ومجموعة تجريبـية ، ولو على الورق .. والأسهـلُ من ذلك هو اختيـارُ (عيّنة) للدراسة .. وهكذا ، لتسيرَ الأمورُ كلُّها (تمام التمام) .

علـى أن هـذا الذي يجرِى في مَجالِ (البحث التجريبي) التربوي ، هو الذي يجـرِى فـي البحوث في مجالِ العلوم الطبيعية كذلك ، عندما يصل الباحث إلى قَناعةٍ بنتيجةٍ ما ، لا تساعد على الوصول إليها التجاربُ الميدانية ، لأسباب متعدّدة .. وإذا كـان ذلك كذلك ، فكيف يكون الأمرُ بالنسبة للبحوث التي تجرى على الإنسان ، حتى ولو كان هذا الإنسانُ طفلا ؟

إنـــنا نســـتغل طفولـــة الطفـــل لنُسقِطَ عليه – نحن الكِبارَ – مِن أنفُسِنا ما نريد إســـقاطَه عليه ، فيرى فيه الإسلام نقيضَ ما تراه المسيحية الكاثوليكية في العصور الوسطَى مَثَلا ، وترَى فيه الشيوعيةُ نقيضَ ما تراه الليبراليةُ الغربية .. ويرَى فيه (المنهَجُ الخفي) Curriculum Hidden ، الذي يُحرِّكُ الحياةَ التربويةَ في هذه البلاد وتلك ، ما يراه ، رغمَ (الرؤية الرسمية) المُعلَنة .. وكان هذا المنهَجُ الخفي هــو الــذي حرّك الحياةَ في العصور الوسطَى الأوربية نحو الإصلاحِ الديني ، الذي اعتُــبِرَت (مُولّداتُــه) – فــي الــبدايات – كُفــراً وهرطقة في نظر رجال الكنيسة الكاثوليكـــية كما نعرِف .. كما كان هذا المَنهَجُ الخفي هو الذي حرّكَ الحياة في عالَم المُسلِمين – في نفس الوقت تقريباً – في اتجاه مختلِف .

إن الأطفال لم يكونوا (عُصاةً) أو متمرّدين ، حتى يكون المثلُ الأعلَى السائد – فــي التربية المسيحية في العصور الوسطَى – هو (دَع العَصا يَفسَد الطفل) .. ولا هم كانوا بُرءاءَ وقِدّيسين ، لو تركناهم نحنُ الكِبارَ لَصلُحَ حالُهم ، حتى نقتنع بمَقولةِ جـــان جاك روسّو (دَعْ الطفلَ يتفتّح كما تتفتحُ الوردة) .. وإنما كان هؤلاء الأطفالُ – مُـــنذُ كـــانوا – (صـــفحةً بيضاءَ) ، تنطبع عليها – بالسلب أو بالإيجاب – رُؤَى الكِبار تلك ، وخاصّة عندما تُترجَمُ إلى سلوكيات يمارسُها هؤلاء الكبـــارُ مع الأطفال ، فتـــترُكَ خطوطَها على هذه الصفحة البيضاء ، فكان توجيهُ الرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم – ابتداءً – بأن هؤلاء الأطفالَ (دَعاميصَ الجنة) ، بمعنَى أنهم صغارُ أهلِها ، على نحو ما أخرجَ الإمامُ أحمـــد والبخاري ومُســـلِم ، عن أبى هريرة رضِىَ اللهُ عنه أن النبـــي صلّى اللهُ وسلّمَ قال : " صِغارُكم دَعاميضُ الجَنّة ، يتلقّى أحدُهم أباه فيأخُذ بـــثوبه ، فلا ينتهي حتى يُدخِلَه اللهُ وأباه الجنة " .. وكان أمرُه صلّى اللهُ عليه وسلّمَ بالعدل بين الأبناء ، واعتبارُه ذلك الترجمةَ الحيّةَ لتقوَى الله ، على نحو ما نقرأ فيما أخـــرجه الشـــيخان (الـــبخاري ومُسلِم) عن النعمان بن بشير رَضِىَ اللهُ عنهما أنّ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ قال : " اتّقوا اللهَ واعدِلوا بين أولادكم " .

إنها ألوان من السلوك يراها الأطفالُ والكِبارُ جميعاً ولا تُخطِئُها العين ، وخاصّة عيـــنَ الصـــغير ، الذي ينَشِّئُه هؤلاء الكِبار ، تماماً كما لا تخطِئُ عينُ الصغيرِ العصا

التـــي ينصح البعضُ الكبارَ بألا يدَعوها حتى لا يَفسَدَ الطفل .. فهو (مفطور) على أن يكـــونَ مرآةً عاكسةً لهذا الذي تلتقطُه حَواسّه ، على نحو ما نفهَمُ – بوضوح من مـــثل قول الله سبحانه في (سورة الإنسان) " إنّا خلقنا الإنسانَ من نُطفة أمشاج نبتليه فجعلـناه سـميعاً بصيراً . أنا هديناه السبيلَ إمّا شاكراً وإمّا كفوراً " (الآيتان ٢ ، ٣) .. أو علـــى نحو ما نقرأ في مثل قوله سبحانه في (سورة البلَد) " ألم نجعلْ له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين " (الآيات ٨ – ١٠) .

ويـــرى الشـــهيد سيّد قُطب – في قراءته لآيتي (سورة الإنسان) – في المجلّد الســـادس مـــن سفره الضخم (في ظلال القرآن)– أنّ(الأمشاجَ) هي " الأخلاط .. وربّما كانت هذه إشارة إلى تكوّنِ النطفة من خليّة الذكر وبويضة الأنثى بعد التلقيح . وربما كانت هذه الأخلاطُ تعنى الوراثاتِ الكامنةَ في النطفة ، والتي يمثّلُها ما يسمّونه – علمـــيّاً – (الجيـــنات) ، وهـــى وحدات الوراثة الحاملة للصفات المميّزة لجنس الإنســـان أوّلا ، ولصفات الجنين العائلية أخيراً .. وإليها يُعزَى سيرُ النطفة الإنسانية في رحلتها لتكوين جَنين إنسان ، لا جَنين أىّ حَيوان آخَر " .. كما يرَى أنّه سبحانه " زوّده – إلى جانب المعرفة – بالقُدرة على اختيار الطريق ، وبيّنَ له الطريقَ الواصل ، ثم تركه ليختارَه ، أو ليَضِلّ ويَشرُدَ فيما وراءه ، من طُرقٍ لا تؤدّى إلى الله " (ص ٣٧٧٩ ، ٣٧٨٠) .

وفـــى قـــراءتِه – يرحَمُهُ اللهُ – لآياتِ (سورة البَلَد) ، يرَى أنّ " الإنسانَ يغترّ بقُوّته ، واللهُ هو المُنعِمُ عليه بهذا القدر من القوّة .. ويضنّ بالمال ، واللهُ هو المُنعِمُ علـــيه بهـــذا المال .. ولا يهتدى ولا يشكُر ، وقد جعلَ له من الحَواسّ ما يهديه في عـــالَمِ المحسوســـات : جعَـــلَ له عينين على هذا القدر من الدقّة في تركيبِـــهما وفى قُدرتِهمـــا علـــى الإبصـــار .. ومـــيّزه بالـــنطق ، وأعطـــاه أداتَـــهُ المُحكَمـــة : (ولســـاناً وشـــفتَين) .. ثم أودَعَ نفسَه خصائصَ القُدرة على إدراك الخير والشرّ ، والهُـــدَى والضلال ، والحقّ والباطل (وهديناه النجدين) .. ليختارَ أيّهما شاء ، ففي طبيعـــته هذا الاستعدادُ المزدوج لسلوك أىّ النجدين . والنجدُ الطريقُ المرتفع .. وقد اقتضـــت مَشـــيئةُ الله أن تمـــنَحَهُ القُـــدرةَ على سلوك أيّهما شاء ، وأن تخلُقَه بهذا

الازدواج طِبقا لحِكمة الله في الخَلق ، وإعطاء كلَّ شئ خلقَه ، وتيسيره لوظيفته في هذا الوجود" (ص ٣٩١٠ ، ٣٩١١) .

إن الطفلَ (عُنصُر فاعل) في عملية التربية ، وإغفالُ دورِه الفاعل في (عمليةِ التربيةِ) تلك إنما يقودها إلى مأزق ، ينعكسُ سلباً على مُخرَجات هذه العملية ، كما نراه يحدُث بشكل واضح منذ (الثورة الصناعية) في الغرب تحديداً ، حيث تمّت تَنحيةُ المؤسّسةِ الدينية عن دورها البارز في هذه العملية ، والذي استمرّ قروناً ستّةً تقريباً ، لا يمكن إنكار الضررَ الفادح الذي ألحقته هذه المؤسّسةُ الدينيةُ بالتربية وبمَسيرة الحَياة في أوربّا الغربيـة فيها .. ولكنّ إصلاحَ خطأ ما في مَجال التربية لا يكون (باقتلاع) ما يجرِى على أرض الواقع مِن جذوره ، كما حدَثَ بعد الإصلاح الديني في الغرب سنة ١٥١٥م ، ولكنه يكون بإصلاح العناصرِ التي تعبّر عن هذا الخطأ ، وبذكاء وعبقرية شديدين ، وإلا كان ما نراه كان بعد هذا الإصلاح الديني .. وبلغ ذِروتَه في هذا الزمان (زمان الألفية الثالثة) ، الذي تعيشُ الإنسانيةُ كلّها مُكتَويَةً بناره فيه .

الطفولة وماعَداها :

تتلخّصُ حياةُ الإنسان – أىّ إنسان – على الأرض في آيةٍ واحدةٍ مُحكَمةٍ من آيات (سورة غافر) ، يقول فيها خالقُ الحَياة والأحياء سبحانه :

- " هو الذي خلقكم مِن تُرابٍ ثم من نُطفة ثم من عَلَقةٍ ، ثم يُخرِجُكم طفلاً ، ثم لِتَبلُغوا أشُدّكم ثم لتكونوا شُيوخا، ومنكم مَن يُتَوفّى من قبل ، ولِتبلُغوا أجَلاً مُسمّى ولعلكم تعقِلون" (آية ٦٧) .

وهكذا تكون(الطفولةُ) – من منظور القرآن الكريم – كما هي في منظور العِلمُ الحديث – مجرّدَ (مَرحلة) مِن مَراحلِ تطّور رِحلة الإنسان الطويلة على الأرض .. ويرَى الشهيد سيّد قُطب – في قراءته للآية – في المجلّد الخامس من سفره الضخم (في ظِلالِ القُرآن) أنّ " الترابَ أصلُ الحَياةِ كلها على وجه هذه الأرض ، ومنها الحياةُ الإنسانية .. ولا يعلَمُ إلا الله كيف تمّت هذه الخارقة ، ولا كيف تمّ هذا الحادثُ الضخمُ في تاريخ الأرض وتاريخ الحَياة . وأما تكاثُرُ الإنسانِ بعدَ ذلك عن طريق

التزاوُج ، فيتمّ عن طريق التقاء خَلِيّة التذكير وهى النطفة ، بالبُوَيضة ، واتّحادهما ، واستقرارهما في الرحمِ في صورة عَلَقة .. وفى نهاية المَرحَلة الجَنينيّة ، يخرُجُ الطفلُ بعدَ عِدّة تطوّرات كُبرَى في طبيعة الخَلِيّة الأُولَى ، تُعَدّ – إذا نحنُ نظرنا إليها بتدَبّرٍ أطولَ وأكبَر – من الأطوار التي يمرّ بها الطفلُ من وِلادته إلى أن ينتهِيَ أجَلُه ، والتي يقِفُ السياقُ عند بعض مراحلها البارزة : مَرحَلة الطفولة ، ثُمّ بُلوغ الأشُدّ حوالي الثلاثين ، ثم الشيخوخة " (ص ٣٠٩٥) .

ومن اللفتات العبقرية للقرآن الكريم تلك اللفتةُ التي يلفِتُ إليها – في معرِضَ حديثه عن أهل الجنة وأهل النار – بعدَ حياتهم الدنيا تلك التي يتمنّى كلّ إنسان أن يخلُدَ فيها – هي أن طول العُمر في الحياة الدنيا يقود إلى حال يكون الموتُ خيراً له منها فيها ، على نحو ما نقرأ في (سورة يس) على سبيل المثال :

– " ومَن نُعمّرهُ نُنكسه في الخَلق . أفلا يعقلون ؟ " (الآية ٦٨) .

إنّ معنَى تنكيسِ اللهِ سُبحانَهُ لمَن يكتُبُ له عُمراً مديداً هو أنّ اللهَ يغيّرُ حالَه ، من قُوّة إلى ضعف ، ومن شَباب إلى هرَم ، ومن جَمال إلى قُبح .. ومن ثَمّ كانت الشيخوخةُ نكسةً إلى الطفولة ، بغيرِ مَلاحة الطفولة وبَراءتها المحبوبة " ، على حدّ تعبير الشهيد سيّد قُطب ، في قراءته للآية الكريمة – في المجلّد الخامس من سِفره الضخم (في ظلال القُرآن)، حيث " ما يزالُ الشيخُ يَتراجَع ، وينسَى ما عَلِم ، وتضعُفُ أعصابُه ، ويضعُف فكرُه ، ويضعُفُ احتمالُه ، حتى يرتدّ طفلا . ولكنّ الطفلَ محبوبُ اللثغة ، تبسمُ له القلوبُ والوُجوه عند كلّ حَماقة ، والشيخُ مُجتَوَى (بمَعنَى أنه بغيض إلى المُحيطين به) ، لا تُقالُ له عَثرة إلا من عطفٍ ورحمة ، وهو مَثارُ السخرية كلما بدت عليه مَخايلُ الطفولة وهو عَجوز ، وكلّما استحمَقَ وقد قوّست ظهرَهُ السنون " (ص ٢٩٧٣) .

وهكذا تختلف الطفولةُ عمّا عداها من مَراحلِ تطوّرِ الحياة الإنسانية على الأرض ، في أنها الأكثرُ ميلا إلى التلقائية والعفوية ، في مَلاحةٍ وحَلاوة تفتح للطفل قلوبَ المُحيطين به وعقولهم – بل وجيوبَهم – جميعا .. فهى (سُنّةُ اللهِ) في خلقه ،

لتستمرّ الحياةُ في تعاطُفٍ وتآزُر . وتَرِدُ (سُنّةُ الله) تلك في مَواضِعَ متعدّدةٍ من القرآن الكريم ، منها (سورة الأحزاب) (الآيتان ٣٨ ، ٦٢) و (سورة غافر) (الآية ٨٥) ، و(سورة الفتح) (الآية ٢٣) .. وتردُ موصوفةً بأنكَ لن تجدَ لها تبديلا في ثلاثة مَواضِع ، أوّلُها في (سورة الأحزاب) (الآية ٦٢) ، والثاني في (سورة فاطر) (الآية ٤٣) والثالث في (سورة الفتح) (الآية ٢٣) .. كما ترِدُ موصوفة بأنكَ لن تجد لها تحويلا في موضعين اثنين ، أوّلُهما في (سورة الإسراء) (الآية ٧٧) ، والثاني في (سورة فاطر) (الآية ٤٣) .. كما ترِدُ موصوفة بأنكَ لن تجدَ لها تبديلا ولا تحويلا في موضعٍ واحد ، هو قولُ اللهِ سبحانه في (سورة فاطر) :

- وأقسموا بالله جهدَ أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُنّ أهدى من إحدى الأمم . فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلا نُفورا . استكباراً في الأرض ومَكرَ السيّئ . ولا يحيقُ المكرُ السيّئُ إلا بأهله . فهل ينظرونَ إلا سُنّةَ الأوّلين . فلن تجدَ لسُنّة الله تبديلا ولن تجدَ لسُنّة الله تحويلا " (الآيتان ٤٢، ٤٣) .

وتفرّقُ مَعاجِمُ اللغة بين (التبديل) و(التحويل) ، اللذين يجتمعان فيما سبَق من (سورة فاطر) ، في أنّ (التبديلَ) يعني(تغييرَ الصورة) ، بينما (التحويلُ) يعني (تغييرَ المكان) أو (تغييرَ الحال) .. ممّا يعني أنّ التبديلَ والتحويلَ إنما يتآزران في توضيحِ المُرادِ القُرآنيّ ، فيما يتصلُ برسوخ سُنّةِ الله في خلقه وثَباتها وتمكّنها وصمودها أمامَ ضغوطِ الزمانِ والمكانِ جميعاً .

ولأنّ الطفلَ – في بدايات حَياته على الأرض يكون عاجزاً عجزاً كاملا تقريباً عن الوَفاء بأيّة حاجة من حاجاته ، فقد غرسَ اللهُ سبحانه في قلوب المُحيطين به حُبّه ، بل والتعلّقَ به ، والاستجابة – بسُرعة ورِضاً وحُبور – لكلّ ما يطلُب أو يحتاج .. بدءاً بحَياة الرحِم ، التي تتولّى فيها الأمّ ذلك كلّه برضاً وسَعادة شديدين ، من خلال (الحَبل السرّيّ) ، الذي جعله اللهُ سبحانه بمَثابة (قنطرة) تربطُ بينه وبينها هي ، دون سواها من عناصرِ الكون المختلفة ، لتنقطعَ صِلتُه بالحَياة والأحياء في العالَمِ إلا من خلال هذا (الكابل) الربّانيّ المُحكَم .. حتى إذا ما أتمّ

(الجنينُ) في بطن أمّه المُدّة المقرّرة لاستواءِ عوده ، بحيث صار قادراً على الاعتماد على نفسه – أو على ملَكاته الداخلية – في تلبية احتياجاته تلك ، مُستغنياً عن هذا (الكابل الربانيّ) ، كانت (الولادة) ، التي لا تعنى شيئاً أكثرَ من اعتماد هذا (المخلوق البشَريّ) على ذاته ، على الأقلّ فيما يتصل بالوَظائف الداخلية له ، ولكنه يظلّ في أشدّ الحاجة إلى رعاية الكبار ، وخاصّة الأُمّ ، التي أمَرَ اللهُ سبحانه الرجُلَ بأن يكون في خدمته وخدمتها جميعاً ، عامين كاملين على أقلّ تقدير ، على نحو ما نفهَمُ من مثل قولِ الله سبحانه في (سورة البقرة) على سبيل المثال :

– " والوالداتُ يُرضعْنَ أولادَهُنّ حولين كاملين لِمَن أرادَ أن يُتِمّ الرضاعة . وعلى المولودِ لهُ رِزقُهُنّ وكِسوتُهُنّ بالمعروف . لا تُكلّفُ نفس إلا وُسعَها .. لا تُضارّ والدة بولدِها ولا مولود له بولدِه .. الآية " (من الآية ٢٣٣) .

تربيةُ الطفلِ عمَليّةٌ احتضانٍ له :

وإذا كان الدورُ الأكثرُ فاعليةً في عمَلية التربية تلك هو دور (الطفل) الذي نتولّى – نحن الكبارَ – تربيتَه .. أو هكذا ندّعي ونتظاهَرُ أمامَ انفُسنا وأمامَ المُحيطين بنا على الأقلّ .. فهل يعنى ذلك أننا – نحن الكبارَ – آباءً كنّا أو معلّمين ، أو غيرَ هؤلاء وهؤلاء – لا دورَ لنا في تربية هؤلاء الأطفال ؟

إنه سؤال قد يبدو غريباً ، ولكنه بالغُ الأهمّيّة فيما نحن بصَدَده ، فإذا كانت (التربيةُ) Education تعنى – في كل لغات الأرض – (التنمية) .. فمن الذي يتولّى هذه التنمية ؟ هل هم الكبارُ الذين يرعَونَ الطفل ، ويسهَرون على راحته وعلى قَضاء حاجاته ، أم أن النموّ (يحدُثُ) في داخلِ الطفلِ ذاته ، من خلال ما زوّده الله سبحانه به من مَواهبَ وملَكات و..(أجهزة داخلية) غير محدودة ، تعمَلُ – بفضل الله وقُدرته – بطريقة آليّة ، بشكل لا تحتاج فيه إلى الطفل ولا إلى المُحيطين به ؟

إنّ الطفلَ يستنشقُ الهَواءَ كما يستنشقه الكبارُ ، ليقومَ هذا الهواءُ بالدور الذي قدّرَ اللهُ سبحانه له أن يقومَ به في الحياةِ عموماً من حوله ، سَواء حياةُ الإنسانِ وحَياة الحيوانِ وحَيَاة النباتِ جميعاً ، دون أن يقومَ الطفلُ ولا المُحيطون به

والراعون له بأيّ جهد على الإطلاق فيما يجرى بداخل الجهاز التنفسي ولا من حوله وحول الطفل ، سوى أن يضمنوا أن هذا الهواء – الذي يستنشقه الجميعُ مُكرَهين على استنشاقه ، حتى ولو كان فاسداً .. يضمنوا أنه ليس فاسداً ، لا من أجل الطفل وحدَه ، ولكن من أجل أنفُسهم كذلك ، لتستمرّ حياتُهم هم أنفسهم بالدرجة الأُولَى .

وكما يعمَلُ الجهازُ التنفسيّ – كما هو معروف – طوالَ الوقت ، ما بينَ (شهيقٍ) يحملُ الهواءَ إلى داخلِ الرئة ، لتحصُلَ منه على متطلّباتها من الأوكسجين ، و(زفيرٍ) يُخلّص الجسمَ من ثاني أوكسيد الكربون .. ولا تتوقّف حركةُ الشهيقِ والزفيرِ تلك إلا بتوقّفِ الحياةِ ذاتِها .. كذلكَ يَعمَلُ القلبُ – بالنسبة للإنسان والحيوان – على مَدارِ الساعة ، لا يتوقف للحظة واحدة إلا إذا توقفت الحَياةُ ذاتُها .. وهكذا ، لنجد أنفسَنا أمامَ عَدَدٍ لا حصرَ له من الأجهزةِ الداخليةِ ، البالغةِ الدقّة والتعقيد ، التي تعمل تلقائيا بأمر ربّها ، و التي تقود الطفل إلى النموّ ، لنرَى – نحن الكبارَ – الطفلَ الوليد ينمو.بين أيدينا ، ولنجده – في يوم مولده – غيره بعد أسبوع من هذا المولد ، ولنجده – في شهره الأول – غيرَه في شهره الثاني ، دون أن يكون لنا دخل في هذا الذي يجرى سوَى أن (نزوّدَ) هذا الطفلَ (بالطاقةِ) اللازمةِ (لتسييرِ) حَركةِ هذا (الكيان) المُعجِز ، وخاصّة حركته الداخلية تلك .

وهكذا يكون كل ما يقوم به الكبار فيما يجرى لا يعدو أن يكون مجرّد (احتضان) الكبير – أو الكبار – لهذا (الكيان) البشرىّ الوليد ، احتضاناً يَستمتعون به ويَسعَدون ، ويُحسّون – من خلاله – بكينونتهم ، إحساساً يزدادون به قُدرة على الحركة والنشاط والفعل ، التي تقود – بطبيعتها – إلى رزق الله ، فالسماء " لا تُمطِرُ ذهَباً ولا فِضّة " ، على حدّ تعبير الخليفة الثاني عُمَر بن الخَطّاب – رضيَ اللهُ عنه – في تقريعه لأحد المتنطّعين .. وربّما كان ذلك ما يمكن أن نفهَمَه من مثل قول الله سبحانه مرّة في (سورة الإسراء) :

– " ولا تقتُلوا أولادَكم خَشيةَ إملاق . نحن نرزُقُهم وإيّاكم . إن قتلَهم كان خِطئاً كبيراً " (الآية ٣١) .

أو من مثل قوله سبحانه مرّة أُخرَى في (سورة الأعراف) :

– " قُـل تعـال أتـلُ ما حرّمَ ربّكم عليكم: ألا تُشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً . ولا تقـتُلوا أولادَكم من إملاق . نحنُ نرزُقُكم وإيّاهم . ولا تقرَبوا الفَواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بطَـن . ولا تقـتُلوا الـنفسَ التـي حـرّمَ اللهُ إلا بالحقّ . ذلكم وصّاكم به لعلّكم تعقلون " (الآية ١٥١) .

وفـي قراءته لآية (سورة الأعراف) – الثانية – حيث يسبقُ رِزقُ الله سبحانه للآبـاء رِزقَه للأبناء (نحن نرزُقُكم وإيّاهم) ، يرَى الشهيد سيّد قُطب – في المجلّـد الثالـث مـن (فـي ظلال القرآن) – أنّ " القاعدةَ التي يقوم عليها بِناءُ العقيدة ، وتـرجِعُ إليها التكاليفُ والفَرائض ، وتُستمَدّ منها الحقوقُ والواجبات .. القاعدةُ التي يجـبُ أن تقـوم أوّلا قبلَ الدخول في الأوامرِ والنواهي ، وقبلَ الدخول في التكاليف والفَرائض ، وقبلَ الدخولِ في النظام والأوضاع ، وقبل الدخولِ في الشرائع والأحكام .. يجـب ابـتداءً أن يعترفَ الناسُ بربوبية الله وحدَه لهم في حَياتِهم ، كما يعترفون بألوهيّـته وحدَه في عقيدتهم .. لا يُشركون معه أحَداً في أُلوهيّته ، ولا يُشركون معه أحَداً في ربوبيّته كذلك .. يعترفون له وحدَه بأنه المتصرّفُ في شؤون هذا الكون في عالَمِ الأسباب والأقدار ، ويعترفون له وحدَه بأنه المتصرّفُ في حِسابِهم وجَزائهم يوم الديـن ، ويعـترفون له وحـدَه بأنه هو المتصرّف في شؤون العِباد في عالَم الحُكم والشريعة كلها سواء .

إنهـا تنقـيةُ الضـمير من أوشاب الشرك ، وتنقيةُ العقل من أوشاب الخُرافة ، وتنقـيةُ المجتمع مِن تقاليد الجاهلية ، وتنقيةُ الحَياة من عبودية العِبادِ للعباد " (ص ١٢٢٩) .

وتنقـيةُ الضـميرِ مـن (أوشاب) الشركِ تلك (بمعنَى الأوباش والأخلاط من الناس) ، لا تقود إلا إلى شيءٍ واحدٍ هو عودة الإنسان إلى فِطرة الله التي فطَرَ الناسَ علـيها ، والتـي هي فِطرة أصيلة فيه .. فالأصلُ في الإنسانِ أنه يكون راغباً في أن يـتحمّلَ المسـئوليةَ مـنذ الـبدايات ، طالَمـا كـان قـادراً على ذلك ، وأنّ مسألةَ (اسـتخلافِ) اللهِ سـبحانه للإنسان مسألة تبدأ مع الطفولة ، ولا تنتظر حتى يصل الإنسـانُ إلـى (سـنّ التكلـيف) .. السنّ التي تبدأ فيها (محاسبة) الله سبحانه

للإنسان على ما تقترف يداه ، وليست السنّ التي يستطيع أن يقوم فيها الإنسان بمَهامّ التكليف .. فكم تكون سعادةُ الطفل بالغة حين يكلّفُه أحَدُ أبويه بمهمّة ما ، وكم يكون شَقاؤه حين يقوم عنه الكبارُ (بكلّ شئ) يريده .. والأطفالُ الذين يُنَشّأون مدلّلين ، مُستَجابةً كل طلباتهم ، يَنمون غيرَ سُعَداءَ بحياتهم المرفّهة تلك ، لا تقرأ على وجوههم سوى كلّ أمارات (القرَف) ، مع أنّ كلّ ما حولَهم يقود إلى نقيضه .. على النقيض ممّا تقرؤه على وجوه الأطفال الذين (حملوا الهَمّ) مع ذويهم منذ الصغر ، فنمَوا مُحبّين للحياة مستمتعين بها ، مهما كانت الأوضاع الماديّة التي يعيشون فيها .. ومن ثمّ كان حرصُ الإسلام – منذ بداياته – على (احتضان) الأطفال والحَنُوّ عليهم ، رغمَ حرصه – في الوقت ذاته – على تجنّب (تدليلهم) ، لأن التدليلَ يُفسِدُ الطفلَ إفساداً ، بنفس القدر الذي يبنيه هذا (الاحتضان) له ، فهؤلاء الأطفال هم (دَعاميضُ الجنة) – أي صِغارُ أهلها ، بمعنَى أنهم (سيّاحون) فيها ، يتحرّكون بين منازلِها كيف يشاءون ، تماما كما يفعل الأطفال في الدنيا .. على نحو ما رأينا من قبل ، عند التعرّض للحديث فيما سبَق .. وقد كان سلوكُه – صلّى اللهُ عليه وسلّمَ – مع حفيديه الحَسَنِ والحُسينِ رَضِيَ اللهُ عنهما خيرَ تطبيق عمليّ لهذه الرؤية التي تبدو – لقِصارِ النظَرِ – خَياليّة حالمة .

تربيةُ الطفلِ عَمَليّة رعاية له :

ومسألةُ (احتضانِ) الطفلِ ليست غايةً في حدّ ذاتها ، فهي عبْء على المُحتضِن بلا شكّ .. ولكنها جُزء من برنامج أكبر لرعاية الطفل ، رعايةً قد تكون عاقلةً رشيدة ، وقد تكون على النقيض من ذلك .. ولكنها رعاية نجد اللهَ سبحانه قد فطَرَ الكبارَ عليها كما سبق ، ليس في عالَم الإنسان وحدَه ، ولكن في عالَمِ الإنسان والحَيَوان والنبات جميعاً .. فهى سُنّة كونية من سُنَنِ اللهِ في خلقه ، لا تقلّ حاجةُ الكِبار إليها عن حاجة الصغار ، فكما أن الصغيرَ في حاجة إليها لقَضاء حاجاته ، ولتحقّقِ نموّه ولاستمرار حياته بالتالي .. فإن الكبيرَ في حاجة إليها ليُحِس بأنه – بالفعل – كبير ، قادر على الإضافة إلى الحياة ، إن لم يكن على (تحريكها) في

اتجـاه بعيـنـه يَراه ، قد يكون اتجاهـاً في الطريق الصحيح ، وقد يكون اتجاهاً في طريق مختلفٍ .. فهذه هي قصّةُ الحَياة منذ كانت .

لقـد خلق اللهُ سبحانه وتعالَى الناسَ مُختلفين لحكمة أرادَها سبحانه ، على نحو ما نقرأ في مثِل قوله سبحانه في (سورة هود) :

– " ولو شاءَ ربّكَ لجعلَ الناسَ أمّةً واحدةً ، ولا يزالون مختلفين . إلا مَن رحِمَ ربّكَ ، ولذلـك خلقهـم ، وتمّـت كلمـةُ ربّـكَ لأملأنّ جهَنّمَ مِن الجِنّةِ والناس أجمعين" (الآيتان ١١٨ ، ١١٩) .

وفى قراءته للآيتين ، يرَى الشهيد سيّد قُطب – في المجلّد الرابع من سفِره الضـخم (فـي ظِلال القرآن) – أنّه " لو شاءَ اللهُ لَخلَقَ الناسَ كلّهم على نسق واحـد ، وباسـتعداد واحـد .. نُسَخاً مكررة ، لا تَفاوُتَ بينها ولا تنويعَ فيها .. وهـذه ليسـت طبيعةَ هذه الحَياةِ المقدّرةِ على هذه الأرض .. وليست طبيعةَ هذا المخلـوقِ البشَـرِيّ ، الـذي استخلَفَه اللهُ في الأرض . لقد شاء اللهُ أن تتنوّعَ استعداداتُ هذا المخلوق واتجاهاته ، وأن يُوهَبَ القُدرةَ على حُرّيّة الاتجاه ، وأن يخـتارَ هـو طـريقَه ، ويَحملَ تَبِعةَ الاختيار ، ويُجازَى على اختياره للهُدَى أو للضـلال .. هكـذا اقتضت سُنّةُ الله وجَرت مَشيئتُه ، فالذي يختارُ الهُدَى كالذي يخـتار الضلالَ سَواء ، في أنه تصرّفَ حسبَ سُنّةِ اللهِ في خلقِه ، ووفقَ مشيئتِه فـي أن يكـون لهذا المخلوق أن يَختار ، وأن يلقَى جَزاءَ منهجِه الذي اختار " (ص ١٩٣٣) .

وهـذا الاخـتلافُ بينَ البَشَرِ لا يقف عندَ حدّ الناس العاديّين ، وإنما يتعدّاهم إلـى أنبياء الله ورُسُلِه ، الذين اصطفاهم مِن بينِ خلقِه ، على نحو ما نفهَمُ من مثِلِ قولِ الله سبحانه في (سورة البقرة) :

– " تلكَ الرسُلُ فضّلنا بعضَهم على بعض ، منهم مَن كلّمَ الله ، ورفعَ بعضَهم درجاتٍ ، وآتيـنا عيسَـى بـنَ مريَمَ البيّناتِ وأيّدناه بروحِ القُدُس ، ولو شاء اللهُ ما اقتتلَ الذيـن مِـن بعدِهم مِن بعدِ ما جاءتهم البيّناتُ ولكنِ اختلفوا ، فمنهم مَن آمَنَ

ومنهم من كفر .. ولو شاء الله ما اقتتلوا . ولكن الله يفعل ما يُريد " (الآية ٢٥٣) .

ويقف الشهيد سيّد قُطب طويلا- في المجلّد الأول من (في ظلال القرآن) – عند مستهلّ الآية (تلك الرسُل) ، فلم يقُلْ سبحانه " هؤلاء الرسُل ، إنما استهلّ الحديث عنهم بهذا التعبير الخاصّ ، الذي يشتمل على إيحاء قَوِيّ واضح " ، فهؤلاء الرسُلُ – عنده – " جَماعة خاصّة ، ذات طبيعة خاصّة ، وإن كانوا بَشَراً من البشَر ، فمَن هم ؟ " (ص ٢٧٨) .

إنّ الله سبحانه قد خلقَ كُلا منهم – في رأيه يرحمُهُ الله – ذا طبيعة خاصّة ، " وهذه الطبيعةُ الخاصّةُ هي التي تتلقّى الوحى ، فَتُطيقُ تلقّيَه ، لأنها مُهَيّأة لاستقباله .. إنها تتلقّى الإشارةَ الإلهيةَ التي يتلقّاها هذا الوجود ، لأنها متصلة اتصالا مباشراً بالناموس الكوني الذي يصرّفُ هذا الوجود " . " إنّ كُلّ الرسُلِ قد أدركوا حقيقةَ (التوحيد) ، وكُلّهم بُعثوا بها " ، " وكلّهم دعا إلى عبادةِ اللهِ الواحد .. دعا إلى هذه الحقيقة التي تَلَقّاها ، وأُمِرَ أن يبلّغها .. " (ص ٢٧٩) .

ويختمُ – يرحَمُهُ اللهُ – القضيةَ بأكمَلِها بقوله " إنّ اختلافَ الاستعداداتِ بين فردٍ وفردٍ من هذا الجنس سُنّة من سُنَنِ الخالق ، لتنويع الخلق – مع وحدة الأصلِ والنشأة – لتُقابِلَ هذه الاستعداداتُ المختلفةُ وظائفَ الخلافةِ المختلفةَ المتعدّدة المتنوّعة ، وما كان اللهُ ليجعَلَ الناسَ جميعاً نسخاً مكرّرة ، كأنما طُبِعت على ورق (الكربون) .. على حينِ أنّ الوَظائفَ اللازمة للخلافة في الأرض ، وتنمية الحَياةِ وتطويرِها ، بمُنوّعة متباينة متعدّدة . أما وقد مضت مَشيئةُ اللهِ بتنويع الوظائف ، فقد مضت كذلكَ بتنويع الاستعدادات ، ليكون الاختلافُ فيها وسيلةً للتكامُل " (ص ٢٨٤)

و معنى ذلك أنّ تربية الطفل – أو رعايتَه – تعنى – فيما تعنيه – المحافظةَ على (فرديّة) الطفلِ تلك ، ممّا يُلقِى الضوءَ على مدَى (الجُرمِ) الذي ترتكبه نُظُمُ التعليم الحديثةُ والمعاصرة في حقّ الطفولة والأطفال – وفى حقّ الإنسانية – حين تعامل الأطفالَ بوصفِهم (عيّنات) ، وليس بوصفِهم (كيانات بشَريّة) ،

يــتفرّدُ كل منها (بخصوصيّة) شديدة ، لا يمكن أن يجدَ الإنسانُ أبرعَ ولا أروعَ من التعبير القُرآنىّ عنها في (سورة مريم) على سبيل المثال :

- " إنْ كُـلّ مَــن فــي السماوات والأرضِ إلا آتى الرحمنِ عبداً . لقد أحصاهم وعدّهم عدّا . وكلهم آتيه يومَ القيامة فردا " (الآيات ٩٣ – ٩٥) .

إن عظَمــةَ الإنســان تكمُــنُ فــي (تفرّدِه) ذاك ، رغم ما فيه من روح انتماءٍ لجَماعــةٍ بعيــنها ، لا من أجــلِ هذه الجماعــة ذاتِها ، بقدر ما هو من أجل نفسه ، بوصفه لا يستطيع أن يعيش في الحَياة (منفرداً) .. فهو في حاجة إلى الآخرين في المجتمع ، ليستمرّ في الحياة ، ويأمَنَ على حاضرِه ومستقبله جميعاً .. وعندما تأتى التربــية لتهدمَ هذا الركن الركين من جوانب حياة الإنسان ، كما تفعَلُ التربية الحديثة والمُعاصِرة ، فإنها تكون عاملا مِن عَوامِلِ تدمير الحياة ذاتها .. وليس أدلّ على ذلك ممّــا حــدث مــن أحداث في القرن العشرين وحدَه ، الذي شهِدَ نِصفُهُ الأوّلُ حربين عالَميتين اثنتين ، لم يفصل بينهما أكثرُ من رُبع قرن من الزمان ، عندما أُتيحَ لِبعضِ مَــن أُســيئت تربيتُهم أن يستغلّوا غفلةَ الأمة التي أُسيئت تربيتُها كذلك ، ليصلوا من خلالها إلى سدّة الحُكم .

إن التربــية عمليّة رعاية للصغير بالفِعل .. وعندما تتحولُ هذه الرعايةُ للطفل إلــى شــلّ لحركته وتعطيلٍ لإمكاناته .. فإنها تتحول إلى (كابوس) ثقيل بالفِعل ، لا تــبدو آثــارُه المدمّــرةُ – فِعلا – إلا عندما يكبر هذا الصغير ويستوى عودُه ويصير (قــادراً) علــى الفِعلِ فِعلا .. كما حدث بالفِعل كما سبق ، وكما لا يزال يحدُثُ حتّى الآن فيما يسمّى (النظام العالمي الجديد) ، بشكل هو الأكثرُ فجوراً وبُعداً عن مجرد الإحساس بالخجَل .

إنّ وظــيفة الأســرة – ابتداء – مِن ثَمّ – ليست مجرّد الرعاية والعِناية ، وإنما هــيَ تــتعدّى ذلك إلى توفيــر (البيئة) العائليّة العميقة ، التي (تُثرِى) (التجربة الحِســيّة والوِجدانــية) للأطفــال .. ممّا " يساعد على النموّ السوِىّ للمُخّ ، وبروز مَواهِــبِه " ، على حدّ تعبير الدكتور نادر فِرجانى ، حيث تبدأ هذه المواهِبُ في التفتّح

- فِعلا – في مرحلة المهد تلك ، وحيثُ إنّ فَقرَ التجربةِ الحِسيّة والوجدانية في مرحلة المهد تلك ممّا يعطّل نُمُوّها .. وقد يكون ذلك بسببِ جهل الوالدين خصوصاً ، والبيئة المُحيطة على وجه العموم ، بأساليب التنشئة السليمة .. وقد يكون بسبَب قصورِ مَوارِد الوالدين عن الحدّ اللازمِ لهذه الاستثارة .. فهذه وغيرُها من معوّقات تحقيق الاستثارة السليمة للمخّ ، على حدّ تعبيره .

تربيةُ الطفلِ عَملِيّة والِديّة :

كمْ هي شاقّة – إذَن – عمليةُ تربيةِ الطفلِ تلك ، لينتقلَ من حالة الضعف التي يكون عليهاً في البِدايات ، إلى حالة القُوّة التي يُرادُ له أن يكون عليها عندما يشتدّ عودُه .. لا يقدر عليها إلا من تربطُه بهذا الطفل رابطة (عُضوية) ، ماديّة محسوسة ، تتمثّلُ في بويضة الأمّ ، والحيوان المنوي القادم مِن الذكرِ لتخصيبها ، لتبدأ عملّية-النموّ .. وهو ما لخّصه القرآنُ الكريم بعبقرية بالغة ، وهو يتحدّث عن بنى آدَم ، في مِثلِ قول الله سبحانه في (سورة الأحقاف) على سبيل المِثال :

- " ووصّينا الإنسانَ بوالديه إحساناً . حملته أمّهُ كرهاً ووضعته كرهاً . وحملُه وفِصالُه ثلاثون شهراً . حتّى إذا بلغ أشُدّه وبَلغَ أربعين سنةً قالَ رَبِّ أوزعني أن أشكُرَ نِعمتَكَ الذي أنعمتَ عليَّ وعلى والديَّ وأن أعمَلَ صالحاً ترضاه . وأصلِحْ لي في ذريتي . إنّي تُبتُ إليكَ وإنّي من المُسلمين " (الآية ١٥) .

وفى قراءته للآية ، يرَى الشهيدُ سيّد قُطب – في المجلّد السادس من (الظلال) – أنها " وصيّة لجنسِ الإنسانِ كُلّه، قائمة على أساس إنسانيّته، بدون حاجةٍ إلى أيّة صفةٍ أُخرَى وراءَ كونِه إنساناً .. وهى وصيّة بالإحسان مُطلَقة من كُلّ شرط ومِن كل قيد .. فصِفةُ الوالديّةِ تقتضي هذا الإحسانَ بذاتها ، بدون حاجةٍ إلى أيةِ صفة أُخرَى كذلك ، وهى وصيّة صادرة من خالق الإنسان ، وربّما كانت خاصّة بهذا الجِنس أيضاً .. فما يُعرَفُ في عالَم الطير أو الحيَوان أو الحشَرات وما إليها ، أنّ صغارَها مكلّفة برعاية كِبارها .. والمُشاهَدُ الملحوظُ هو فقط تكليفُ فِطرة هذه الخَلائق أن ترعَى كِبارُها صِغارَها في بعض الأجناس " .. كما يرَى أنّه " تتكرّرُ – في القرآن الكريم وفى حديث الرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم – الوصيّةُ بالإحسان إلى

الوالديـــن ، ولا تردُ وصيّةُ الوالدينَ بالأولاد إلا نادرة ، ولمناسبة حالات معينة . ذلك أن الفطـــرةَ وحدَها تتكفّلُ برعاية الوالديـــنَ للأولاد ، رعايةً تلقائية ، مندفعةً بذاتها ، لا تحتاج إلى مُثير .. وبالتضحية النبيلة الكاملة العجيبة ، التي كثيراً ما تصل إلى حدّ المـــوت – فضلا عن الألَم – بدون تردّد ، ودون انتظار عِوَض ، ودونَ مَنّ أو حتّى رغـــبة فـــي الشكران. أما الجيلُ الناشئ ، فقلّما يتلفّتُ إلى الخلف .. قلّما يتلفّتُ إلى الجـــيلِ المُضَحّى الواهـــب الفاني ، لأنه – بدوره – مندفع إلى الأمـــام ، يطلُبُ جيلا ناشئا منه ، يضحّي له بدوره ويرعـــاه .. وهكذا تمضي الحَياة " (ص ٣٢٦١) .

ولأن الـــرابطةَ بين الطفل ووالديه رابطة عُضوية ، كان منطقيّا ألا تَقِفَ الرابطةُ عند حدّ الوالدين اللذين ولَدَا ، وإنّما أن تمتدّ منهما إلى الجَدّين ، اللذين أنجَبا هذين الوالدين كذلك .. وحُبّ الرسول صلّى اللهُ عليه وسلّم لحفيديه الحسَن والحسين رضيَ اللهُ عنهما معْروف ، ففي الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه قوله : " قبّلَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم الحسَنَ بنَ عليّ وعنده الأقرَعُ بـــنُ حـــابس التميميّ جالساً ، فقال الأقرع : إنّ لي عشرةً من الولَد ، ما قبّلتُ منهم أحَـــداً ، فنظرَ إليه رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّمَ ثم قال : من لا يَرحَمْ لا يُرحَمْ " .. وفي الحديث الذي أخرجه عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت : " جاء أعرابي إلى النبي صـــلّى اللهُ عليه وسلّمَ فقال : تقبّلون الصبيانَ فما نقبّلُهم ، فقال النبي صلّى اللهُ عليه وسلّم : أوَأملِكُ لكَ أنْ نزَعَ اللهُ من قلبكَ الرحمة ؟ " .

إنهـــا سُـــنّةُ الله فـــي خلقـــه أن تفعَلَ هذه (العلاقةُ العُضويةُ) فعلَها في توسيع (القـــاعدة) التـــي يُرسِـــي عليها الإنسان دَعائمه ، لتشمَلَ (رَحِماً) يمتدّ – لحِكمة أرادَهـــا اللهُ ســـبحانه – طولا وعرضاً ، على النحو الذي توضّحه (سورة النساء) على سبيل المثال ، وهي تتحدّث عن (مَحارِم) الإنسان ، اللاتي لا يجوز له أن يبنيَ بواحدة منهن :

– " حُرّمـــت عليكم أمّهـــاتُكم وبَناتُكم وأخَواتُكم وعَمّاتُكم وخالاتُكم وبَناتُ الأخِ وبَـــناتُ الأخـــت ، وأمّهاتُكم اللاتي أرضعنَكم وأخَواتُكم من الرضاعة ، وأمّهاتُ نســـائكم ورَبائـــبُكم اللاتي في حُجورِكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ ، فإن لم

تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم . وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم . وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف . إن الله كان غفوراً رحيما " (الآية ٢٣) .

وفي قراءته للآية ، يرى الشهيد سيّد قُطب – في نهايات المجلّد الأول من (الظلال) – أن " المحرّمات – في الإسلام – هي هذه الطبقات المُبَيّنَة في هذه الآية والآية التي قبلَها والآية التي بعدَها .. وبعضُها محرّمة تحريماً مؤبّداً ، وبعضُها محرّمة تحريما مؤقّتاً .. وبعضُها بسبَبِ النسَب ، وبعضُها بسبَبِ الرضاعة ، وبعضُها بسبَبِ المصاهرة " ، " وأنّ المحرّمات بالقَرابة – في شريعة الإسلام – أربعُ طبَقات : أُولاها : أصولُهُ مهما علَوْا ، فيحرّم عليه التزوّج من أمّه وجدّاته ، من جهة أبيه أو من جهة أمّه ، مهما عَلَوْن " .. " وثانيتُها : فروعُه مهما نزلوا " .. " وثالثتُها فروعُ أبويه مهما نزلوا " .. " ورابعتُها الفروعُ المباشِرةُ لأجداده " (ص ٦٠٨) .. كما يرى أنّ النصّ لم يذكُر " علّةَ التحريم – لا عامّة ولا خاصّة – فكل ما يُذكَرُ من علَل إنما هو استنباط ورأى وتقدير .. " (ص ٦٠٩) .

يا بُنَيّ اركَب معنا :

والعُنوانُ المختارُ لتُختَمَ به ورقةُ العمَل تلك (صرخة) صرخها أبو الأنبياء نوح عليه السلام ، استنقاذاً لابنه .. مالت إليه نفسي ، ربّما (بفعل) الأحداث التي كانت تفرِض نفسها على كل إنسان حرّ وقت الكتابة .. أحداث (تدمير) لبنان الحُرّ الأبي ، على أيدي (بَرابِرة) العصر قتَلَة الأنبياء ، مدعومين دعما كاملا من المتخصّصين في تدمير الحياة منذ كانوا ، أحفاد رُعاة البقر ، وعلى رأسهم من يسمّون بالمحافظين الجُدُد .

ونوح عليه السلام – كما نعرِف – هو ابن مالك بن متوشلح بن إدريس عليه السلام .. كان يسكن أرضَ الكُوفة في العِراق ، حيث كان يعيش خمسةُ رجال صالحين من أجداد قومه ، هم وَدّ وسُواع ويَغوث ويَعوق ونَسر ، وبعد موتهم صنع لهم مُعاصِروهم تَماثيل عبدوها من دون الله هم وأبناؤهم من بعدِهم .. وقد لَبِثَ نوح عليه السلامُ بين قومه ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً ، على حدّ التعبير القرآنيّ المُحكَم في (سورة العنكبوت) (الآية ١٤) ، يدعوهم إلى عِبادة الله وحدَه ، ولكنّهم

كـانوا يُصرّون على الشـرك به ، على نحو ما نقرأ في بِدايات السورة التي سُمِّيَت باسمِه (سورة نوح) :

- " إنّا أرسلنا نُوحاً إلى قومِهِ أنْ أنذِرْ قومَكَ مِن قبلِ أن يأتيَهم عَذابٌ أليم . قال يا قومِ إنّي لكم نذير مُبين . أن اعبُدوا ربّكم واتقوه وأطيعون . يغفِرْ لكم مِن ذنوبِكـم ويؤخـرْكم إلـى أجَـلٍ مسمّى .. إنّ أجلَ اللهِ إذا جاء لا يؤخّرُ لو كُنتم تعلمـون . قال ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً . فلم يزِدهم دعائي إلا فِراراً . و إنّي كلّما دعوتُهم لِتغفِرَ لهم جعلوا أصابِعَهم في آذانِهم واستغشَوْا ثِيابَهم ، و أصَرّوا واستكبروا استكباراً .. " (الآيات ١ – ٧) .

وإذا مـا تركـنا بدايا القِصّة – وبدايات السورة – إلى نـهاياتها ، وجدنا قولَ الله سُبحانه :

- " قـال نوح ربِّ إنهم عَصَوْني واتّبعوا مَن لم يزِدهُ مالُهُ وولَدُه إلا خساراً . وقالوا لا تَذَرُنّ آلِهتَكم ، ولا تذَرُنّ وَدّاً ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويَعوقَ ونَسراً . وقد أضلّوا كثـيراً ، ولا تـزِدْ الظالمـين إلا ضـلالا . مِمّا خطيئاتِهم أُغرِقوا فأُدخِلوا ناراً فلم يجِـدوا لهـم مِـن دون الله أنصـاراً . و قـال نوح ربِّ لا تذَرْ على الأرضِ من الكافريـن ديّـاراً . إنكَ إن تذرهم يُضِلّوا عِبادَكَ ولا يلِـدوا إلا فاجراً كفّاراً . ربِّ اغفِرْ لي ولِوالِدَيّ ولِمَن دخلَ بيتِيَ مؤمِناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزِدِ الظالمين إلا تَباراً " (الآيات ٢١ – ٢٨) .

وقـد اسـتجاب اللهُ سبحانه لنوحٍ عليه السلام ، فأمره بصُنع السفينة ، ليتحقّقَ أمـرُ اللهِ فيهم من خلالها ، على نحو ما يمكن أن نفهَمَ مِن مِثلِ قول الله سبحانه في (سورة هود) :

- " وأوحِـيَ إلـى نوحٍ أنه لن يؤمِنَ مِن قومِك إلا مَن آمَن . فلا تبتئِسْ بما كانوا يَفعَلـون . واصـنعْ الفُلكَ بأعيُنِنا ووحيِنا ، ولا تخاطِبني في الذين ظلموا ، إنهم مُغـرَقون . ويَصـنَعُ الفُلـك .. وكلّمـا مرّ عليه مَلأٌ مِن قومِه سَخِروا منه ، قال إن تَسخَروا مِنّا فإنّا نَسخَرُ منكم كما تَسخَرون . فسوف تعلمون مَن يأتيه عذابٌ يُخزيه ويَحِلّ عليه عَذابٌ مُقيم . حتى إذا جاء أمرُنا وفارَ التنّورُ قلنا احمِلْ فيها مِن كلٍّ

زوجين اثنين وأهلكَ إلا مَن سبقَ عليه القولُ ومَن آمَن . وما آمَنَ معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها باسمِ الله مَجراها ومُرساها . إنّ ربّي لغفور رحيم " (الآيات ٣٦ – ٤١) .

ومن المُضحكات المُبكيات – في هذا المَجال – أن أحَدَ أبناءِ نوحٍ عليه السلامُ كان من هؤلاء الذين ظلموا ، والذين كانوا يسخَرون ، ممّا يدلّ على عُمق ثَقافة الشرك تلك في نفوس القوم ، حيث " الاستقبال الجاهل المُتعافي " للرسالة ، على حدّ تعبير الشهيد سيّد قُطب في قراءته للآيات في الظلال (ص ١٨٧١) ، لا يسلَمُ منه هذا الابن العاقّ ، التي نكمل مِشوارَنا مع الآيات لنقرأ عنه وعمّا حدث منه وله:

– " وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال . ونادَى نوح ابنَه وكان في معزِل : يا بُنَيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوِي إلى جَبَلٍ يعصِمُني من الماء . قال لا عاصمَ اليومَ من أمر الله إلا مَن رَحِم . وحال بينهما الموجُ فكان من المُغرَقين " (الآيتان ٤٢ ، ٤٣) .

و في قراءته للآيتين ، يرَى الشهيدُ سيّد قُطب أنه " في هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة ، يُبصِرُ نوح ، فإذا أحَدُ أبنائه في مَعزِل عنهم وليس معهم .. وتستيقظ – في كيانه – الأُبُوّةُ الملهوفة " .. " ولكنّ البُنُوّةَ العاقّة لا تحفِلُ بالأبوة الملهوفة ، والفُتُوّة المغرورة لا تُقدّر مَدَى الهولِ الشامل " (ص ١٨٧٨) .

و أستطيعُ أن أدّعِيَ – مُطمئنًا – إلى أنّ كل الآباء – في هذا الزمان – ينظُرون إلى أبنائهم من هذا المنظور .. منظور أنهم ضالّون مُضَلّلون ، ليس من باب الكراهية لهم بطبيعة الحال ، ولكن من باب الحُبّ لهم والحِرص عليهم والإشفاق .. وهو حُبّ مدمّر من وجهة نظري ، أسألُ اللهَ أن يعافينا منه ، لتستقيمَ حَياتُنا وحياتُهم.

وآخِرُ دَعوانا أن الحمدُ لِلهِ ربّ العالمين ...

دكتور عبد الغنى عبّود